

من تراث اللّحن في المتوسّط كتاب تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان لابن مكّي الصقلي(ت501هـ)

د. عبد القادر سلامي

جامعة تلمسان

المقدمة:

لقيت اللّغة العربيّة من الدّراسة والبحث ما أهلها لبناء أساس صلد متين من القواعد، يواجه أيّ تصدّع في اللّسان؛ فلمّا نزل القرآن الكريم، ودخل الإسلام غير العرب. واختلطت الألسنة الأعجمية بالعربيّة، بدأ داء اللّحن يدبّ إلى ألسنة العوّام، ثمّ انتقل إلى بعض الخواص، ولكنّ الأدهى والأمرّ هو وصوله إلى قراءة القرآن الكريم، وهذا ما جعل حركة التّأليف في اللّحن تنشط، لحماية ما بقي فصيحاً سليماً من ألسنة العرب أو لجبر ما يمكن جبره، فخصّ كلّ عالم كتاباً للحن أهل بلده، ليقيم ألسنتهم ويصوّبها سواء تقدّم عهداً أو تأخّر.

ومن بين هذه المؤلّفات، كتاب (تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان) لابن مكّي الصقلي، والذي خصّ به لحن أهل صقلية - عامتهم وخاصّتهم - فاخترناه وكتابه ليكون محور هذه الدراسة.

1- ترجمة ابن مكي:

هو أبو حفص عمر بن خلف بن مكي الحميري الصقلي^(١) المازري، كان إماماً وخطيباً وفقهياً وذا باع طويل في علوم اللغة العربية،^(٢) وما ساعده على ذلك كثرة حفظه وغزارة علمه،^(٣) رحل إلى تونس من برّ العدو فاستوطنها، وولي قضاءها، وكان يجيد الخطب ومما يذكر أنّه كان يخطب في كلّ جمعة بخطبة من إنشائه، تفوق خطب ابن نباته^(٣) (ت220هـ)، إضافة إلى ذلك كلّه كان شاعر حكمة وموعظة ومما قاله:^(٤)

يا حريصاً قطع الأيَّام في بُؤس عَيْشٍ وَعَنَاءٍ وَتَعَبٍ
ليس يَعْدُوكَ مِنَ الرِّزْقِ الَّذِي قَسَمَ اللهُ فَأَجْمَلَ فِي الطَّلَبِ

وفي مقام آخر يقول:^(٥)

أَتَطْمَعُ فِي وَدِّ امْرِئٍ فَهُوَ قَاطِعٌ لِأَرْحَامِهِ هَيْهَاتَ قَدْ فَاتَكَ الرَّشْدُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْمَرْءِ خَيْرٌ لَوَالِدٍ وَلَا وَلَدٍ لَمْ يَرْجُهُ أَحَدٌ بَعْدُ

وقد توفي ابن مكي الصقلي سنة 501هـ،^(٦) دون أن تذكر كتب التراجم مكان دفنه.

أما عن شيوخه الذين أخذ عنهم،^(٧) فيمكن أن نذكر محمداً بن علي بن الحسن بن البرّ، وأبا بكر التميمي الصقلي، وعبد الحق بن محمد بن هارون أبا محمد السهمي القرشي الصقلي (ت466هـ) والشيخ حسن بن رشيق القيرواني أبا علي، الأديب الشاعر اللغوي (ت456هـ). والحديث عن مآثر الرجل وحلّه وترحاله وتلامذته شحيحة لا تكاد تحيط بما كان للرجل من غزارة علم وكثرة تأليف منها ما لم يصل إلينا، ومنها ما وصل، ككتابه موضوع حديثنا التالي.

2- كتاب تثقيف اللسان وتلقيح الجنان و ظروف تأليفه:

اختار ابن مكي الصقلي لكتابه عنوان (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان)، ليكون مقوماً للألسنة العربية، رافعا اللبس الواقع بين الصواب والخطأ؛ لأنّ الناس تساوا جميعاً عماقتهم وخاصيتهم، إلا من رحم ربك، في درجة ارتكابهم للحن حتى أصبح من الصعب

التّمييز بين المصيب والمخطئ، وربما سخر المخطئ أحيانا،⁽⁸⁾ ممّا أدّى بابن مكّي الصقلّي إلى تأليف كتابه.

كما أنّ هناك سببا لا يقلّ أهميّة عن سابقه، وهو أنّ رجلا متخصصا في الفقه وحفظ الأخبار والأشعار طلب منه أن يجمع ما يقدر على جمعه ممّا يصحف النّاس في ألفاظهم، وما يغلط فيه أهل الفقه،⁽⁹⁾ لتفادي الوقوع فيها.

والجدير بالذكر أنّ ابن مكّي لم يكتف بذكر التّصحيف بل أشار إلى الأخطاء التي سمعها من النّاس على اختلاف طبقاتهم، مركزا على بعض ما لم يسبقه إليه أحد من المتقدّمين الذين كتبوا في هذا الموضوع من علماء المشرق والمغرب⁽¹⁰⁾ كما يعدّ أول من ألف في غلط أهل صقلية.⁽¹¹⁾

ويرجع تاريخ تأليف هذا الكتاب إلى ما بين 456هـ-460هـ على حسب رأي عبد العزيز مطر الذي استدلّ على ذلك أنّ ابن مكّي عرض مادّة كتابه على ابن البرّ التّميمي الذي ترك صقلية إلى الأندلس عام 460هـ، وفي هذا العام أو بعده بقليل هاجر ابن مكّي إلى تونس ومن هنا يمكن القول: إنّ تثقيف اللّسان ألف قبل هذا التاريخ، ثمّ يمكننا أن نزيد تاريخ التّأليف تحديدا، فنرجّح أنّه تمّ بعد عام 456هـ الذي توفّي فيه ابن رشيّق، على الأرجح، وذلك لأنّ ابن مكّي يذكره بقوله رحمه الله.⁽¹²⁾

وقد بقي من الكتاب نسختان خطّيتان، إحداها بمكتبة مراد مّلا باسطنبول تحت رقم 1735 في 154 صفحة، والأخرى بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، ومنها مصوّرة بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدّول العربيّة برقم 30 في 140 صفحة،⁽¹³⁾ وقد قام بتحقيقه عبد العزيز مطر، وطبع تحقيقه بعناية المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة سنة 1966م،⁽¹⁴⁾ ثمّ أعاد تحقيقه مصطفى عبد القادر عطا، وطبع أوّل مرّة عام 1989م وهو عمدتنا في هذا البحث، كما حقّقه رمضان عبد التّوّاب بالاعتماد على المخطوطتين السابقتين.⁽¹⁵⁾

3- منهج ابن مكي في الكتاب:

اعتمد ابن مكي في جمع الأخطاء على ثلاث مستويات، هي: (16)

1- ما لا يجوز مطلقا في لسان العرب.

2- ما يجوز و لكن غيره أفصح منه، والناس لا يعرفون هذا الأفصح.

3- ما كان مستعملا وهو غير فصيح، ولكنه جائر وأنكر الناس جوازه.

ولم يكتف ابن مكي بجمعها بل صنّفها حسب أنواعها، من أوزان وأبنية، وتصريف واشتقاق، و أغلاط أهل الاختصاص من قراء القرآن، وأهل الحديث، والطّب وغيرهم، كما أنصف العامة من الناس أحيانا، وخطأ الخاصة أحيانا أخرى، بالإضافة إلى الشواهد الشعرية، والأمثال العربية التي دعمت مادته العلميّة وزاد " أبوابا مستطرفة ونتفا مستملحة، وأصولا يقاس عليها ليكون الكتاب تثقيفا للسان وتلقيحا للحنان ولينشط إلى قراءته العالم والجاهل ويشترك في مطالعته الحالي والعاطل"، (17) كما أتبع كلّ باب كلاما يليق به أو يقاربه، (17) وبلغت أبواب كتابه الخمسين بابا، هي: (18)

1- باب التصحيف.

2- باب التبديل.

3- باب ما غيروه لمن الأسماء بالزيادة.

4- باب ما غيروه من الأسماء بالتقص.

5- باب ما جاء ساكنا فحرّكوه.

6- باب ما جاء متحرّكا فأسكنوه.

7- باب ما غيروا حركاته من الأسماء.

8- باب ما غيروا حركاته من الأفعال.

9- باب ما غيروه من الأفعال بالزيادة.

10- باب ما غيروه من الأفعال بالتقص.

11- باب ما غيروه بالهمز أو تركه.

12- باب ما غيروه بالتشديد.

- 13- باب ما غيروه بالتخفيف.
- 14- باب ما غيروه من أسماء الفاعلين والمفعولين.
- 15- باب ما غيروا بناءه من أنواع مختلفة.
- 16- باب ما أثثوه من المذكّر.
- 17- باب ما ذكّروه من المؤنث.
- 18- باب ما يجوز تذكيره وتأنيثه وهم لا يعرفون فيه غير أحدهما.
- 19- باب غلطهم في التصغير.
- 20- باب غلطهم في النسب.
- 21- باب غلطهم في الجموع.
- 22- باب ما جاء جمعا فتوهموه مفردا.
- 23- باب ما أفردوه ممّا لا يجوز إفراده، وما جمعه ممّا لا يجوز جمعه.
- 24- باب في أنواع شتى.
- 25- باب ما وضعوه غير موضعه.
- 26- باب ما جاء لشيئين أو لأشياء فقصره على واحد.
- 27- باب ما جاء لواحد فأدخلوا معه غيره.
- 28- باب ما جاء فيه لغتان فتركوهما واستعملوا الثالثة لا تجوز.
- 29- باب ما جاء فيه ثلاث لغات فتركوهن واستعملوا رابعة لا تجوز.
- 30- باب ما غلطوا في لفظه ومعناه.
- 31- باب ما تنكره الخاصّة على العامّة وليس بمنكر.
- 32- باب ما خالفت العامّة فيه الخاصّة وجميعهم على غلط.
- 33- باب ما جاء فيه لغتان استعمل العامّة أفصحها.
- 34- باب ما فيه العامّة على الصّواب والخاصّة على الخطأ.
- 35- باب غلط قرّاء القرآن.
- 36- باب غلط أهل الحديث.

- 37- باب غلط أهل الفقه.
- 38- باب غلط أهل الوثائق.
- 39- باب غلط أهل الطبّ.
- 40- باب غلط أهل السّماع.
- 41- باب ما يجري من ألفاظ النَّاس ولا يعرفون تأويله.
- 42- بما تأوّلوه على غير تأويله.
- 43- باب من الهجاء.
- 44- باب حروف تتقارب ألفاظها وتختلف معانيها.
- 45- باب حروف تتقارب ألفاظها وتتضادّ معانيها.
- 46- باب حروف تتفق في المباني وتتقارب في المعاني.
- 47- باب علامات ترفع الإشكال من حروف متقاربة الأشكال.
- 48- باب في ضدّ الذي قبله.
- 49- باب ما يكون فضيلة لشيء ورذيلة لغيره.
- 50- باب ما ظاهر لفظه مخالف لمعناه.

وقد ارتأى عبد العزيز مطر تقسيم موضوعات هذا الكتاب إلى ما يلي: (19)

أ- التّصحيح:

بدأه بحديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم استثناسا وتبرّكا،⁽²⁰⁾ ورّتب موادّه على أساس الحروف التي وقع فيها التّصحيح⁽²¹⁾ ترتيبا ألفبائيا مثل التاء والثاء، الحاء والحاء، الدال والدّال وغيرها، والملاحظ أنّه لم يتّبع أيّ ترتيب بين الكلمات المنضوية تحت هذه الفصول، وبلغت نسبته 02% من مجموع أبواب الكتاب الذي يعادل بابا واحدا.

ب- لحن العامّة والخاصّة:

لقد أفاض ابن مكّي في الحديث عن لحن العامّة والخاصّة من أهل صقلية، حيث أنّه جمع بينهما في أغلب الأبواب،⁽²²⁾ والتي بلغ عددها تسعة وعشرين بابا، ما عدا في الأربعة التالية:⁽²³⁾

* الباب 31: ما تنكره الخاصة على العامة وليس بمنكر.

* الباب 32: ما خالفت العامة فيه الخاصة وجميعهم على غلط.

* الباب 33: ما جاء فيه لغتان استعمل العامة أفصحهما.

* الباب 34: ما فيه العامة على الصواب والخاصة على الخطأ.

والتي ردّ فيها بعض الألفاظ العامة إلى أصلها الفصيح، وقد بلغت نسبة هذا

الموضوع 66% من مجموع أبواب الكتاب بما يعادل ثلاثة وثلاثين باباً.

ج- أخطاء المتخصصين: أوردها ابن مكّي في ستة أبواب بنسبة قدرها 12% من مجموع

أبواب الكتاب، وضمت ما يلي: (24)

* الباب 35: غلط قراءة القرآن.

* الباب 36: غلط أهل الحديث.

* الباب 37: غلط أهل الفقه.

* الباب 38: غلط أهل الوثائق.

* الباب 39: غلط أهل الطب.

* الباب 40: غلط أهل السماع.

د- ثقافة لغوية عامة :

وقد بلغت نسبتها 12% من مجموع الأبواب "تتصل بما قصد إليه المؤلف من

جعل كتابه تثقيفاً للسان تلقيحاً للحنان" (25)، وتشتمل على الأبواب التالية: (26)

* الباب 41: ما يجري من ألفاظ الناس ولا يعرفون تأويله.

* الباب 42: ما تأولوه على غير تأويله.

* الباب 44: حروف تتقارب ألفاظها وتختلف معانيها.

* الباب 45: حروف تتقارب ألفاظها وتتضادّ معانيها.

* الباب 46: حروف تتفق في المباني وتتقارب في المعاني.

* الباب 47: علامات ترفع الإشكال من حروف متقاربة الأشكال.

هـ-قواعد الكتابة العربية:

خصّص لها ابن مكي الباب الثالث والأربعين (من الهجاء) وهو موجه للخاصّة من النّاس ودارسي العربيّة، ويمثّل نسبة قدرها 2% من مجموع أبواب الكتاب.

و- ثقافة عامّة غير لغوية:

وقد انضوت تحت الأبواب التالية:⁽²⁷⁾

*الباب 24: في أنواع شتى.

*الباب 50: ما ظاهر لفظه مخالف لمعناه.

بالإضافة إلى الباب: 49: ما يكون فضيلة للشيء ورذيلة لغيره، وهو من الأبواب

المستطرفة والتنف المستملحة⁽²⁸⁾ التي أشار إليها ابن مكي في مقدّمة كتابه.

الإحالات

(* نسبة إلى صقلية ، وهي جزيرة في قطعة من البحر الشّامي بينها وبين أقرب برّ من مالطة ثمانون ميلاً؛ افتتحها المسلمون في صدر الإسلام وغزاها أسد بن الفرات الفقيه أميراً وقاضياً سنة 212هـ. وقد سميت صقلية باسم سيقلو أخو ايطال الذي به سميت إيطاليا، وكان تعرف قبل "تري قريبا"، ومعناه باللسان الإغريقي : ثلاثة في أربعة، وإنما ذلك لثلاثة مواضع مشرفة فيها ، وهي: بلرم التي هي قاعدتها وباجنة ولاوم، وبين صقلية وبلد إيطاليا خليج من البحر. ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 366-367.

- (1) ينظر بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنحاة، 218/2 والبلغة في تاريخ أئمة اللّغة، ص132، وإنباه الرواة على أنباه التّحاة ، 329/2.
- (2) ينظر بغية الوعاة: 218/2.
- (3) ينظر إنباه الرواة: 329/2.
- (4) تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان، ص5.
- (5) إنباه الرواة: 329/2.
- (6) ينظر البلغة في تاريخ أئمة اللّغة، ص132.
- (7) ينظر تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان، ص4.
- (8) ينظر لحن العامّة في ضوء الدّراسات اللّغوية الحديثة، ص147.
- (9) ينظر: تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان، ص16-17.
- (10) ينظر لحن العامّة في ضوء الدّراسات اللّغوية، ص149.
- (11) ينظر: تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان، ص17.
- (12) ينظر: لحن العامّة في ضوء الدّراسات اللّغوية الحديثة، ص151.
- (13) ينظر: لحن العامّة والتطوّر اللّغوي، ص235 ومعجم المعاجم ، ص72.
- (14) نظر: معجم المعاجم، ص72.
- (15) ينظر: لحن العامّة والتطوّر اللّغوي، ص235.
- (16) ينظر: المصدر السابق، ص18.
- (17) ينظر: المصدر السابق ، ص18.
- (17) ينظر: المصدر السابق ، ص18.
- (18) المصدر السابق ، ص18-19.
- (19) ينظر: لحن العامّة في ضوء الدراسات اللّغوية الحديثة، ص163-168.
- (20) ينظر: تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان، ص21.
- (21) ينظر: لحن العامّة في ضوء الدراسات اللّغوية الحديثة، ص160.
- (22) ينظر: المرجع نفسه، ص 163-164.

- (23) ينظر: تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، ص186-201.
- (24) ينظر: المصدر السابق، ص202-226.
- (25) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، ص 166-167.
- (26) ينظر: تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، ص 232-248، 266، 288.
- (27) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، ص 157-159، 294-303.
- (28) ينظر: المرجع نفسه، ص168.

ثبت المصادر والمراجع

- *إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين بن أبي الحسن القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952م.
- *بغية الوعاة لجلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- *تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لأبي حفص عمر بن خلف بن مكي الصقلّي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1990م.
- * لحن العامّة في ضوء الدّراسات اللّغوية الحديثة لعبد العزيز مطر، دار المعارف، 1981م.
- * لحن العامّة والتطوّر اللغوي لرمضان عبد التّوّاب، ط2، مكتبة زهراء الشرق مصر، 2000م.
- * معجم المعاجم لأحمد الشرقاوي إقبال، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1407هـ- 1987م.
- * وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.